

الفصل الثامن

فيما يدل على ذكر الله تعالى بأسمائه وصفاته

وذلك من وجوه نقلاً وعقلاً. أما الدلائل النقلية فقوله تعالى: ﴿قَالَ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا﴾ [الإسراء: 110] وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: 180] فالحسنى تأنيث الأحسن كالصغرى والكبرى للأصغر والأكبر، وقد قيل في وصف الأسماء بهذه الصفة: أنها دالة على معان حسنة وهي صفات الله تعالى، وقيل أيضاً: بأن المراد من الأسماء هنا الأوصاف الحسنة نحو الوصف بالوحدة والعز والجلال والعدل والإحسان.

ثم من اللوازم الاحتراز عن الوصف القبيح بما لا يصح أن يوصف به تعالى، فإن ذلك هو الزيغ عن سنن الصواب كما في قول النصارى بأنه جوهر⁽¹⁾ مثلاً.

وما يدل على فضيلة الذكر من الآيات، فذلك متعدد مثل قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: 152] وغيره، قدم الذكر على الشكر في هذه الآية لما أن الذكر هو الاشتغال به لا غير، والشكر اشتغال به وبغيره، وذلك هو النعمة.

ثم الذكر قد يكون باللسان وقد يكون بالجنان، وذلك بأن يتفكر الإنسان في حقائق أوصافه ودقائق أطافه، أو بأن يتفكر في أسرار حكمته حتى تظهر عليه أنوار عظمة حضرته، وقد يكون بالجوارح، وذلك بأن تكون الجوارح

(1) وهو ما يقبل التحيز. الحدود الأنيقة (1/ 71).

مستغرقة في الطاعة والعبادة، ولهذا سميت الصلاة ذكراً، قال تعالى: ﴿فَأَسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: 9].

وقد قيل في الذكر: إنه على سبعة أنواع: ذكر العينين بالبكاء، وذكر الأذنين بالإصغاء، وذكر اللسان بالحمد والثناء، وذكر اليدين بالبذل والإعطاء، وذكر القدم بالجهد والوفاء، وذكر القلب بالخوف والرجاء، وذكر الروح بالتسليم والرضا.

وأما قوله تعالى: ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: 152] فلا بد من حمله على إعطاء الكرامات كالثواب والتعظيم والرضوان لأرباب الشريعة وأصحاب الحقيقة، ثم للناس فيه رغبات كما قيل:

(أذكروني) بالدعاء (أذكركم) بإعطاء الآلاء، (أذكروني) بالخوف والرجاء (أذكركم) بالأمن والعطاء، (أذكروني) بالصدق (أذكركم) بالرفق، (أذكروني) بالإجابة (أذكركم) بالإجابة، (أذكروني) بالمجاهدة (أذكركم) بالهداية ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [التكوير: 69] (أذكروني) بالشكر (أذكركم) بالزيادة ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7]، بالصبر (أذكركم) بجزيل الأجر ﴿إِنَّمَا يُؤْتِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10]

وعلى هذا في الغير من الآيات كما في قوله تعالى: ﴿فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشْكَدَ ذِكْرًا﴾ [البقرة: 200]، فإن فيه من الوجوه ما فيه. منها: أن تذكروا كذكر الآباء لا كذكر الأولاد، فإن ذلك للشفقة وإنه مما يليق بالحضرة، ومنها: أن فيه إشارة إلى الذكر بصفة الوحدة، إذ الأب واحد ليس إلا، بخلاف الولد، ومنها: أن فيه إشارة إلى النظر في مبدأ الوجود، ومنها: إنه إشارة إلى الاستعانة به في المهمات، ومنها: أن الولد أبداً يكون رطب اللسان بمناقب أبيه، فيجب أن يكون كذلك بتسبيح الله ﷻ وتقديسه.

وأما الشواهد العقلية فنقول: إنه تعالى خلق الإنسان وأودع فيه قوة عقلية ملكية، وقوة وهمية شيطانية، وقوة شهوانية بهيمية، وقوة غضبية سبعية.

ثم إنه تعالى ألهمه معرفة الخير والشر فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا هَٰؤُلَاءِ فَمَا كَفَرُوا وَكَفَرُوا بَعْدَ مَا كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ سَاءَ لَكُم مَّوَدِعَ الْمَصَالِحِ وَالْمُفَاسِدِ ۚ وَقَالُوا لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ لَفَدَحْنَاكُم مِّنَ السَّمَاءِ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَيِّبًا ۚ لَٰكِن لَّعَلَّكُمْ تَكْفُرُونَ ۚ﴾ [الشعر: 8] وأعطاه آيات بها تحصل القوة على إدراك المصالح والمفاسد فقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: 10] وأقدره على الخير والشر فقال تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: 29] ثم دفع عنه الحرج فقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78] وما كلفه إلا بقدر الوسع فقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286] وإنما فعل ذلك كله إبتلاء كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّادِقِينَ﴾ [محمد: 31]

ثم عمم هذا الحكم في حق الكل فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56] ثم بين كيفية ذلك التكليف فقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: 5].

غير أنه ﷺ خلقه محتاجاً إلى التصرف في أمور معاشه ومصالح حياته، فلا يمكنه أن يواظب على العبادات في جميع الأوقات، فلا جرم ألزمه وظائف العبادات في أوقات مخصوصة على وجه التخفيف، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185] كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ [النساء: 28] ﴿وَحَلَقَ الْإِنسَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 28]

ثم إنه ﷺ جعل جميع البدن على ثلاثة أقسام:

أحدها: القلب وهو رئيس الجوارح ومحل العقل ومبدأ الفهم.

وثانيها: اللسان وهو آلة للعبارة عما في الضمير.

وثالثها: سائر الأعضاء.

ثم إنه تعالى عين لكل واحد منها نوعاً من الطاعة والعبادة مما يليق به، فعين الفكر للقلب، والذكر للسان، والسكنات والحركات للأعضاء والجوارح، ثم مدحها في محكم تنزيله، أما الفكر ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 190] الَّذِينَ

يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ قِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩٦﴾ [آل عمران: 190-191] الآيات .

وأما للذكر ففي قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: 152].

وأما للحركات والسكنات ففي قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: 1-2] الآيات، وعلى هذا في الغير من الآيات الدالة على فضيلة الذكر والفكر والحركات اللازمة للأعمال الصالحة. ولا خفاء في أن أسرار منازل هذه الأمور وأنوار مراتبها من جملة ما لا يمكن عدّها وإحصاءها، فلا مجال للعاقل أن يطلع عليها كما هي هي، بل وإن كان يطلع على قدر منها فذلك على حسب الملازمة للذكر والفكر والمواظبة عليهما، ثم إنه تعالى كما صرح بالبعض من المصالح في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28] مثلاً، فقد صرح بالبعض من المفاسد كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ [طه: 124] الآية. والتصريح بالذكر يدل على التحريض، وفيه من الآيات والأخبار والآثار، لكن ذكرها لا يليق بهذا المختصر.

